بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

فى مطلع عام جديد، ومصر تحتفل بعيد ميلاد السيد المسيح الذى جعله الرئيس مبارك عيداً لكل المصريين تأكيداً للوحدة الوطنية ودعماً للنسيج الوطنى الواحد الذى ساد فى مصر عبر قرون طويلة.. فى مصر قلب العالم العربى.. فى هذا المكان الذى شهد أول حضارة فى التاريخ.. وفى نفس المنطقة التى هبطت فيها رسالات السماء حاملة بشائر الخير والرحمة والسلام تسود مشاعر مختلفة وقاسية تتعلق بالزمان والمكان وتؤرق الكثيرين وتؤثر على شعورهم بالأمان.

فى كثير من الأحيان يشعر الشعب العربى بمزيج من الإحباط والتوتر، ذلك أن الجو المحيط بالمنطقة العربية جو يبعث على الأسى، جو يسوده التبجح ويخيم عليه جموح القوى، ويسرى فيه الظلم أو الإحساس به على الأقل، وتطغى فيه مشاعر من العجز تجاه قوى طاغية ضربت عرض الحائط بموازين الحق والعدل والشرعية، وقلبت الحقائق، وفى كثير من الأحيان لم تعد تحتاج إلى فضيلة الحياء، فتصرفاتها مبررة مسبقاً، وكلماتها نافذة مهما كانت المعارضة، وضرباتها ساحقة لا يستطيع أحد أن يعرض نفسه لها.. شعب عربى يُضرب بالقنابل والمدافع وتَدْهَسُ

أطفاله ونساءه جنازير الدبابات، وتهدم الطائرات والقنابل البيوت على أصحابها، والعالم فى معظم الأحيان يشيح بوجهه ويتغاضى ويتظاهر بعدم الالتفات فى إطار سقوط مشين للشرعية الدولية، وتطبيق فاجر لمعايير مزدوجة.

إن الدول النامية والدول العربية والإسلامية والدول الفقيرة تقف الآن فى مواجهة مشهد مأساوى تعربد فيه القوة الباغية، وتزداد الفجوة الحضارية بين العالم المتقدم والعالم النامى ويتم وبغير حياء التربصُ بالضعفاء وحصارُهم وترصدهم وجرح كبريائهم، بل واتهامهم بما لم يرتكبوه فى كثير من الأحيان.

وهذا المشهد المأساوى كانت له مقدمات وإرهاصات ودواعٍ وأسباب وتوابع ومعقبات تماماً كما يحدث فى الظواهر الطبيعية.. ففى السياسة كما هو فى الطبيعة.. فإن الزلازل لا تحدث فجأة ولا تنتهى بغتة وإنما لها مقدمات وتعقبها توابع، فالتحرك النسبى لطبقات الأرض يؤدى فى لحظة معينة إلى ظاهرة الزلازل. وكذلك فى الحياة فإن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تحرك البشر وتؤثر فيهم وتزيد الفجوة بين شرائح المجتمع وتغذى الفتنة بين طوائفه، وبالمثل فإن النظم السياسية والاجتماعية إن لم تتطور لاستيعاب ومواكبة التغير والتطور فى وسائل الإنتاج والتفجر المعرفى والدور المتعاظم لوسائل الإعلام والاتصال، وإن لم تتسع لتحقيق الطموحات والتطلعات للأفراد والجماعات فإنها فى لحظة معينة قد تتعرض لانفجار من الداخل.. وعلى أية حال فإنه فى لحظة معينة تصل الأحداث إلى قمة مأساوية نشاهدها على شكل أحداث وموجات من الغضب تشبه الزلازل والبراكين وتعقبها

تداعيات ومضاعفات.. ويحضرنى هنا أمران:

فى السنين الأخيرة فى الحلبة العربية كنا نحس أننا أمام مأساة حقيقية.. تتزايد فيها الفجوة بين إمكاناتنا وطموحاتنا، وبين ظواهرنا الصوتية وقدراتنا الفعلية، بين إنجازات هذه الأمة وإنجازات غيرها ممن أخذوا بأسباب العلم وعملوا واجتهدوا من أجل التقدم.. وصرنا على مشارف فجوة حقيقية.. فجوة حضارية وفجوة علمية.

وكذلك كان الحال فيما يتعلق بأحداث ١١ سبتمبر وتوابعها من ازدياد سيطرة العالم المتقدم وفرض سطوته.. إن القوى أو العناصر التى قامت بهذا العمل الذى أدانه العالم لاستهدافه مدنيين أبرياء، إنما سبقته تحركات ومشاعر وأحداث سياسية واجتماعية وسَّعت الفجوة بين طبقات البشر وزادت من الهوة بين أحلام البسطاء وما يتحقق على أرض الواقع، كما عمقت الإحساس باليأس والاغتراب بين شرائح ودول وأفراد أحسوا بالمرارة وتصاعد عندهم الإحساس بالكراهية وزاد شعورهم باليأس، ودفعتهم لنزعات وتصرفات هوجاء طائشة أو هجمات انتحارية.

فقد كانت هنا وهناك غفلة عما يحدث وتلكؤ عما يجب، فلا العولمة بكل تقدمها العلمى وإنجازها التكنولوجى استطاعت أن ترصد العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وتحركات الطبقات الاجتماعية وإرهاصات هذا العمل اليائس الذى فجر نفسه ودمر أو ضرب رموزاً اقتصادية وعسكرية أحدثت شرخاً فى المجتمع الأمريكى، ولا نحن استطعنا فى عالمنا العربى

والإسلامى أن ندرك أننا قد أهدرنا ثروات كبيرة وأنفقنا الوقت فيما لا ينفق فيه وفقدنا فرصاً كثيرة وانشغلنا بما لا طائل منه ولا جدوى من التصارع عليه، وإنما تبددت جهودنا المبعثرة فى شتات من الأمور.. وفى نزاعات وخلافات.. وشهوات وأطماع.

كانت أحداث ١١ سبتمبر لحظة فتح الستار عن مشهد مأساوى تم التدبير له والإعداد لتنفيذه فى غفلة عنه إلا من قلة. كما كانت أحداث ١١ سبتمبر وما تبعها صدمة أيقظت الكثيرين على واقعنا المؤلم وفجوتنا العلمية والتكنولوجية والحضارية التى زادت من الإحساس بالعجز واليأس.

ما العمل؟ هذا هو السؤال.. نحن فى مفترق طرق.. هل نستسلم لهذه المشاعر التى تعتصر نفوس الكثيرين وتهدد الآمال والأحلام ولا تعطى أصحابها فرصة لتغيير أحوالهم أو التجاوز عن عثراتهم؟ هل أصبح مصير الأمة العربية معلقاً بإرادة باغ أجنبى أو طاغ عنصرى أو بنزوة أحمق أو مأفون أو بغضبة طائش أو مجنون؟ هل هذا هو مصير الحضارة المصرية القديمة والعربية والإسلامية التى سادت هذا المكان وسجلته فى صحائف الزمان .هل قُدر لهذا الشعب أن يستكين؟ أو قُدر عليه أن يقبل الغبن والهوان؟ أسئلة تحتاج إلى إجابة وعلامات استفهام تحتاج إلى إيضاح.. ولعل هذا هو حديثنا فى هذا الكتاب.

القاهرة - يناير ٢٠٠٣